برقية

ـ لقد كدت أن تحطم مستقبلي، ولو إنني أعلم أنك تدعوني لأجل هذا لما جئت قط.

ذات مساء وصلتني برقية عاجلة، فضضتها في دهشة، وقرأتها في لهفة: «ولدي العزيز/ يطلب منكم الحضور عاجلًا لأمر هام وضروري جدًا».

تساءلت ما هذا الأمر الذي يستدعيني من أجله أبي؟ ماذا حدث له؟ هل أشتد عليه المرض خاصةً وأن صحته ضعيفة، وهو يزحف نحو الشيخوخة، تملك قلبي الفزع والاضطراب، كأن هناك شيئًا خطيرًا قد وقع للأسرة في غيابي، لم أنم في تلك الليلة، ولم يغمض لي فيها جفن، أصبحت حائرًا كالكرة التي تتقاذفها الأرجل، صريح الأسئلة الغامضة والشكوك القاتمة، ليلة طويلة من أتعس الليالي في حياتي.

ما أن أشرقت شمس الصباح حتى أسرعت إلى مدير المعهد، دخلت عليه، أخبرته بأمر البرقية التي وصلتني بالأمس، أذن لي بالسفر بعد أن نصحني ألا أتغيب كثيرًا،

خاصةً وأن الامتحانات على الأبواب، ركبت أول سيارة أجرة قاصدًا قريتي النائية، وطنين كلمات البرقية في أذني كطنين النحل المفزع (ولدي العزيز، يطلب منكم الحضور..) ما زال القلق يمزقني، والطريق طويل كأنه لا نهاية له يتلوى مثل الثعبان والسيارة تسابق الريح، صوت «مطربة شعبية» يدوي من مسجل السيارة يصم الأذان، الركاب ما بين من يؤرقني متحدث إلى جاره، ومن هو يخلد إلى الصمت أو مستسلم للنوم.

وأنا فريسة للظنون والشكوك، عقارب الساعة تدور ببطء كجمل يمشي الهويني، صراع عنيف أحس به في رأسي من التفكير في المجهول، وما تخبئه هذه البرقية وراءها من غموض، وبعد عدة ساعات مرت وكأنها أعوام لاحت لنا أشجار النخيل الشامخة والواحة الصغيرة وبيوتها البيضاء والشمس الغاربة.

ترجلت من سيارة الأجرة في الشارع الرئيسي الوحيد، أهل الواحة يحدقون فيّ وكأنني غريب عنهم، أو في ما يلفت

الانتباه يا له من أمر مذهل، اقترب مني أحدهم والابتسامة على شفتيه وحياني قائلًا:

ـ كل شيء على البركة يا صالح.

إذن فهو حدث مفرح، الحمد لله وماذا يكون هذا الحدث المفرح؟ هل يعني ذلك عرس أخي سعيد الذي يصغرني بعامين؟ تُرى من هي صاحبة الحظ السعيد التي ستزف إليه؟ هذا ما لا ينبغي التفكير فيه الآن، بعد أن تلاشت مخاوفي وزالت شكوكي، واصلت طريقي بخطى مسرعة، وهرعت إلى المنزل، أهل الواحة يدخلون ويخرجون، القدور على النار، الدخان يعلو كثيفًا ويعانق السماء، الزغاريد تدوي في الفضاء، في هذه اللحظة اقترب مني صبي أعرفه جيدًا كنت اساعده في شرح بعض العمليات الحسابية الصعبة وبعد التحية سألته:

ـ أهو عرس أخي سعيد؟

غمغم الصبي في سخرية باهتة وقال:

ـ إنه ليس عرس أخيك.

أصابني الذهول وغدوت في حيرة من أمري وتساءلت مأخوذًا:

ـ إذن عرس من؟ نظر الصبي إليَّ بابتسامة ساخرة:

ـ أنه عرسك يا صالح ألا تعلم؟

امتقع وجهي أحسست بغصة في حلقي، لم أنبس ببنت شفة، كانت صدمة قاسية يا له من أمر مجحف زواج في الغياب؟ هل هذا يصدق؟ أهكذا تفعلها يا أبي؟ أهذا وقته سامحك الله؟ ماذا أفعل وقد جئت بقدمي، التفت حولي فلم أجد الصبي، هرع مسرعًا يزف خبر وصولي للجميع، مازلت متسمرًا مكاني، خطرت لي فكرة أن أعود من حيث أتيت، وأتخلص من هذه الورطة، غير أنني ما خطوت إلى الوراء خطوة حتى أقبلت نحوي الحاجة عازه وهي تطلق الزغاريد فرحة بقدومي، من أين خرجت هذه العجوز؟ حملت عني الحقيبة وأحاطتني بوابل من التهاني، سرت خلفها كالأسير في خيبة وألم، لقد وقعت وانتهى الأمر، ولا حيلة لي، وعليّ أن أستسلم للأمر، بعد برهة سألتها:

ـ ومن العروس؟

ـ إنها نورية أجمل بنات الواحة..

ـ نورية ابنة موسى حسن؟

ـ أجل هي..

وهذه صدمة ثانية تلك الفتاة التي أمقتها في طفولتي تزف إليّ رغمًا عني، ماذا أفعل وقد انتهى الأمر؟ هل أرفض لكن هذا يعد خروجًا على طاعة أبي، أصل المنزل حيث الضجيج والصخب، الأقارب والأصدقاء يعانقونني ويمطرونني بالقبلات، تعلو الزغاريد ويدوي البارود في الفضاء، بعد لحظات همست لابن عمي الجالس بالقرب مني:

ـ أليس في الإمكان تأجيل هذا العرس؟

ـ لماذا يا صالح؟ والذبائح نحرت ووجبة العشاء بعد قليل..

ـ أنني أحس بصداع عنيف في رأسي.

نهض وأسرع إلى الداخل سرعان ما جاءني بكوب من الماء وقرص الأسبرين، الزواج لم يكن في تفكيري على الإطلاق قبل التخرج، قطع علي ابن عمي الصمت قائلًا:

ـ انتظرناك بالأمس لكنك تأخرت.

رشفت جرعة ماء وراء قرص «الأسبرين» أجبته قائلًا:

ـ البرقية وصلتني متأخرة.

همست بيني وبين نفسي ليتها ما وصلتني، يا له من حظ عاثر الأصدقاء يهتفون بي:

(خلك شجاع يا صالح راهي ليلتك الليلة).

يمضي الوقت متثاقلًا وتحين اللحظة الرهيبة ويفسح لي الرفاق الطريق، وهم يصفقون خلفي أحس بالاضطراب، أفتح باب الغرفة كانت تقبع منكمشة مذعورة، في إحدى زواياها بفستانها الوردي، تمتد يدي توصد الباب من الداخل أحملق فيها، الخوف والذعر يبدوان على محياها، اقتربت منها وأنا ألهث بين فخذيها، يزداد خوفها كانت تجلس القرفصاء، الانقباض يسري في كيانها إزاء حركات يدي المتشنجة المرتعشة، تتكرر محاولات يدي أمد أصبعين في محاولة اثنين ثلاثة لم ينبجس الدم، حاولت أكثر من مرة لكن دون جدوى،

والمنديل الأبيض لم تلوثه نقطة دم، تهرب بعينيها المغرورقتين بالدموع، دقات متتالية على الباب تطالبني بالواجب، الجمهور خارج الحلبة ينتظر النتيجة، صرخت فيها:

ـ أنت طالق طالق.

ثم قفزت خارجًا، أقاربي يترصدون لي عند الباب، تخلصت منهم بصعوبة بالغة، رميت بالمنديل الأبيض في وجوههم.

لم تشرق شمس اليوم التالي حتى كانت الفتاة في بيت أهلها يجللها الخزي والعار، بينما كنت أودع أبي قائلًا له:

ـ لو أنني أعلم أنك تطلبني لأجل هذا الشيء لما جئت قط.

وودعتهم عائدًا إلى مدينتي الغافية في أحضان البحر، حيث معهدي وكتبي وآمالي هناك.